مقومات الحضارة العربية

للدكتور سليمان عزين

لكل حضارة من الحضارات الكبرى فى تاريخ البشر مقوماتها وأسسها التى تقوم عليها وتستند إليها . وحضارة العرب هى إحدى الحضارات الكبرى التى ظهرت فى التاريخ، وعاشت فترة طويلة من الزمن ، وأثرت فى غيرها من الحضارات . بل إن بعض مظاهر الحضارة العربية ، لا سيما فى ميدان الثقافة والروح ، قد عاش وبقى على الأيام أطول مما عاش غيره من ألوان الفكر والثقافة التى ظهرت فى جهات أخرى من العالم . ومن المظاهر الخالدة فى ثقافة العرب لغتهم التى عاشت وأنتجت أدبا قام بذاته وعبر به أصحابه عن معانى الحياة ومشاعرها خلال فترة تقارب الستة عشر قرنا ، وهو ما امتازت به اللغة العربية على كثير من اللغات القديمة والحديثة ، فاللغة اللاتينية مثلا إنما عاشت بضعة قرون ، ماتت بعدها كلغة يتكلم بها الناس ويعبرون عن مشاعرهم ، ولم تبق إلا كلغة تدرس فى الكتب . واللغات الأوروبية الحديثة كلها لا يكاد يجاوز أطولها عمراً ، كلغة حياة وأدب ، ألف عام أو نحو ذلك . أما اللغة العربية فقد عاشت وأنتجت أدبا فهمته الأجيال المتعاقبة وتذوقته رغم بعد الشقة فى الزمن . ونحن الآن لا نزال نقرأ الأدب الجاهلى ونتمتع لقراءته كما لا نزال نقرأ القرآن ويأخذنا سحره . وهذا ما يميز تراثنا الثقافى عن تراث كثير غيرنا من الأمم والشعوب .

وما يقال عن اللغة العربية يقال عن غيرها من نظم العرب الاجتماعية ، وما خلفوه من تراث حضارى عام . فقد بقى كله وخلد ، ولا بد لبقائه من سبب أو أسباب كانت من دعائم قوته ومقومات حياته . وقد يكون من المفيد فى هذا الحديث أن نستعرض بعض تلك الدعائم والمقومات ، استعراضاً يهدف إلى تبسيط الحقائق التى وصلت إليها دراساتنا الحديثة للعرب وحضارتهم ، أكثر مما يقصد إلى التعمق فى تفصيلات تاريخ الحضارة العربية .

وأول ما نلاحظه على حضارة العرب أنها حضارة أصيلة فى البيئة العربية ، قد تأثرت بظروف مهدها إلى أبعد الحدود . فهى إذن ليست حضارة دخيلة ولا منقولة وإن كانت قد تأثرت بغيرها من الحضارات المجاورة . وقد كان ارتباط الحضارة العربية بالبيئة الجغرافية لبلاد العرب سبباً من أسباب قوتها واستمرارها على الزمن . ولكن الشىء المهم أن البيئة العربية

ليست كلها صحراء كما قد نتصور ، وإنما فيها البادية وفيها الحضر ، وفيها النجاد الداخلية والسهول الساحلية ، وفيها العيون وفيها الأودية ومجارى الأنهار ، وبعض جهاتها كالربع الخالى وصحراء النفود مقفر مجدب شديد الجفاف ، وبعضها الآخر كبلاد اليمن غنى التربة غزير الأمطار يشبه الجهات الموسمية ، ثم إن جنوب بلاد العرب على الجملة تسقط أمطاره فى الصيف أى فى موسم الحرارة ، على حين تسقط أمطار شمالها فى الشتاء ، أى فى فصل البرودة . لذلك كله فإن البيئة العربية كانت بيئة متنوعة أو هى بعبارة أصح وأدق تجمع بين الوحدة والتنوع : الوحدة من حيث الموقع الجغرافى العام والبيئة الصحراوية الحارة على الجملة ؛ والتنوع من حيث الاختلافات الإقليمية والمحلية . وقد انعكست الصورة الجغرافية فى حضارة العرب وثقافتهم . فهى وإن كانت ذات طابع عربى عام ، فإنها مع ذلك تتسم بصفات محلية متنوعة. فهناك عرب الجنوب وعرب الشمال أو قحطان وعدنان ، وهناك أعراب البادية ، وأبناء الحضر . بل هناك فى شمال الجزيرة أرض العراق وأرض الشام ، ثم هناك حداة الإبل الذين يعيشون على اليابس ويعملون فى النقل على طول طرق القوافل ، وهناك العرب الملاحون الذين ورثوا الفينيقيين على سواحل البحر المتوسط وورثوا الملاحين القدماء فى الخليج الفارسى وبحر العرب . إلى غير ذلك من مظاهر التنويع التى كانت فى حد ذاتها مصدراً من مصادر القوة ، وعنصراً من عناصر اتساع الأفق وتفتح مجال الفرص فى حياة العرب وحضارتهم . ولولا ذلك التنوع الذى كان مرده إلى البيئة العربية ما كانت لحضارة العرب تلك القدرة العجيبة على أن تجارى الزمن وتجارى الظروف ، ولا كانت لها تلك الحيوية التى ميزتها عن غيرها من الحضارات .

وليس معنى التنوع فى البيئة العربية وفى تكوين العرب أنهم كانوا مجرد جماعات اختلط بعضها ببعض ، وإنما معناه الصحيح أنهم كانوا جماعة ذات مواهب متنوعة ، وحيوية استطاعت على الدوام أن تجد مجالها فى العمل والنشاط وبناء الحضارة مهما اختلفت الميادين ومهما تباينت الظروف .. وذلك كله أمر صحيح يسلم به من يدرسون تاريخ العرب والحضارة العربية .

ولقد خرج العرب من بيئتهم إلى البيئات المجاورة واحتكوا بأهلها ، ونقلوا عنهم ما نقلوا كما منحوهم وأعطوهم من نتاج بيئتهم العربية ما ساعد على تزاوج الفكر والحضارة فى العالم القديم تزاوجا كانت له أطيب الثمرات . وكان ذلك على الأخص بعد ظهور الإسلام وانتشاره إلى الشرق والغرب وعلى طول طرق التجارة البرية والبحرية .

بل إن تجار العرب وملاحيهم قد انتشروا إلى جهات بعيدة من الأرض وإلى بيئات متباينة أشد التباين ، فهم وصلوا قلب آسيا وأطرافها الشرقية ، بل وبلغ تجارهم البر البلطى ، وانتشر ملاحوهم إلى سواحل إفريقية الشرقية وبلاد الزنج من جهة ، وإلى بلاد الملايو وجزر الهند الشرقية وبعض شواطئ الصين من جهة أخرى . وفى كل هـذه الأصقاع كانوا رسل الثقافة وحملة النور . ولعل العرب من هذه الناحية أن يكونوا أوسع شعوب الأرض اتصالا ونشراً للثقافة ونور المدنية والحضارة . بل إنهم سبقوا فى سـعة الاتصال وفاقوا فى اتساع الانتشار ما بلغه بعض شعوب أوربا الحديثة بعد ذلك بعدة قرون .

والحق أن العرب أمة كان لهـا فضل كبير فى الحضارة والمدنية . وهم سـلالة الشعوب السامية القديمة ، وورثة ذلك الموقع الجغرافى الفذ فى قلب العالم القديم وهو الموقع الذى اتصلت فيه السلالات من كل الألوان ، وتعلم الإنسان أن يأخذ ويعطى ، وأن يؤثر ويتأثر ، وأن يغدو إنساناً فى حضارة عالميـة بالمعنى الكامل الشامل . ولـكن المهم بل الطريف أننـا إذ ندرس الحضارة العربية نلمس فى يسر أنها رغم اتصالاتها العريضة كانت على الدوام حضارة ظاهرة مميزة ، وقد يكون من الطريف فى هذا المقام أن نسجل عنها بعض الأمور التى ميزت طابعها وأبرزت الدور الحضارى الذى قام به العرب فى صورة واضحة المعالم .

وأول هـذه الأمور أن حضارة العرب الإسلامية أفادت من سعة انتشارها ما زاد من قوتها وحيويتها ، وأضاف إلى اتساع أفقها وتنوعها ، فاختلطت حضارة العرب فى أرض الشام بحضارة آرامية قديمة ذات اتصال بحضارة الأغريق وفلسفتهم ، واختلطت فى أرض العراق بحضارة سامية أخرى كانت متأثرة بحضارة الفرس فى مجال المادة ومجال الروح ، كما اختلطت فى مصر وأرض النيل بحضارة عريقة أصيلة كان من حظ أهلها أيضاً أنهم تلقوا حضارة الأغريق وثقافتهم ونتاج فـكرهم فاحتضنوه وغذوه وحفظوه للعرب والمستعربين من أبنـاء الشرق القديم ، الذين ما لبثوا أن غدوا هم ورثة الثقافة الإغريقية ، والقوامين عليها خلال بضعة قرون . وبهذا الاختـلاط كله فى أرض الشام والعراق ومصر وكذلك باتصال العرب مع أجزاء أخرى من العـالم كفارس وبلاد الهند وشرق إفريقية وشمالها . . بذلك كله عدت حضارة العرب حضارة عالمية بالمعنى الصحيح ، وخرجت عن نطاقها ومهدها الضيق إلى العالم القديم بأسره ، واتسعت أوجه الشـبه والاتصال بينها وبين حضارات ذلك العالم . وهكذا وجدت طريقا جديداً إلى الخلود والبقاء ولو فى صورة جديدة تختلف عما كانت عليه صورتها الفطرية فى قلب الجزيرة العربية .

والأمر الثانى الذى يهمنا هو أن الحضارة العربية فى نشأتها الأولى كانت حضارة بسيطة غير مركبة ، وذلك من حيث أسسها المادية ، ونظمها الاجتماعية الصحراوية ، واتجاهات فكرها ونزعاتها الروحية . وهذه البساطة فى حد ذاتها راجعة أيضاً إلى مقومات البيئة الجغرافية والاجتماعية بين الرعاة وحداة الإبل . ولكنها كانت إلى جانب ذلك مصدر قوة فى الحضارة العربية ، لأنها جعلت منها لوناً من الحضارة أو الحياة واضح المعالم محدد الأهداف والغايات قائما على أساس خضوع الفرد للجماعة واندماجه فيها ، حتى فيما يمس حياته المادية ، فالماء والمرعى وغيرهما من مرافق الحياة مثلا كانت مرافق عامة تملكها القبيلة كلها أو العشيرة الضاربة فى جهة من الجهات ولذلك كانت حياة الفرد من حياة العشيرة ، كما كان دمه من دمها ، بل لذلك فإن الحضارة العربية حملت فى كيانها الأصلى روح الترابط بين الفرد والجماعة ولوناً من ألوان التآخى والتساند والتكافل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وهذا ما جعل منها حضارة عالمية تصلح لأن تنتشر إلى العالم الخارجى ، فتربط بين أطرافه ، ولا تميز بين عربى وغير عربى ، وإنما تشيع فى العالم كله لوناً جديداً من الحضارة الإنسانية ، التى تقوم على أساس الأخوة فى الحياة أو الأخوة فى الثقافة والدين على كل حال .

وأما الأمر الثالث فهو أن البساطة فى حياة العرب وحضارتهم قد ترتب عليها ظهور التجرد من المادة فى كثير من ألوان الفكر العربى ، ولعل خير ما يوضح لنا ذلك أن العرب حتى الآن لا يزالون يجدون مثلهم العليا فى أمور مجردة غير ملموسة ، فهم يرون القصيدة الشعرية أدق تعبيراً عن معانى الحق والخير والجمال من التمثال المجسم أو البناء المشيد ، وهم كثيراً ما يأخذهم سحر القول بأكثر مما يخلب لبهم الزخرف الملموس .. ولعل العرب أن ينفردوا فى ذلك بين غيرهم من الأمم وأصحاب الثقافات الأخرى .

أما الأمر الرابع والأخير فيتمثل فى صفة لم تكن أقل تمييزا لحضارة العرب وثقافتهم من صفة البساطة ألا وهى المرونة والمقدرة على التجديد وعلى مجاراة الزمن ومجاراة ظروف البيئات المختلفة التى انتشر إليها العرب أو انتشرت ثقافتهم . ومن هذه الناحية ينبغى أن نصحح خطأ شائعاً عن العرب وعن حضارتهم الإسلامية . وذلك أن الاعتقاد السائد بين من يدرسون التاريخ العربى دراسة سطحية هو أن العرب قوم صحراويون ، قد انتشرت ثقافتهم ونجحت على الخصوص فى بيئات الرعاة المماثلة للبيئة العربية الأصلية . ولكننا إذا رجعنا لخريطة العالم وجدنا أن العرب قد انتشروا ونقلوا معهم معالم حضارتهم وثقافتهم إلى بيئات متباينة أشد التباين .. منها أواسط آسيا وشمال أفريقية وهى أقاليم رعوية ، ومنها مصر وأرض

العراق وهى بيئات زراعية مستقرة ، ومنها بلاد الهند وهى مناطق زراعيـة أيضاً ولـكنها ذات مناخ يختلف تماما عن البيئة العربية الأصلية ، ثم منها جزر الهند الشرقية التى تقع عند خط الاستواء . وليس فى بيئتها الجغرافية ولا فى تكوين سكانها ونظمهم الاجتماعية ما يشبه من قريب أو بعيد بيئة الصحراء وحياة الرعاة من الأعراب . ولعل هذا كله أن يكون دليل المرونة والمقدرة على التشكل والتطور فى الثقافة العربية بما يجارى البيئة الجديدة . . وذلك ما اكتسبه العرب من بيئتهم الجغرافيـة وموقع بلادهم الجغرافى ، واحتكاكهم منذ القدم بالشرق والغرب وبالشمال والجنوب .

تلك خلاصة موجزة عن حضارة العرب ومقوماتها ، ومصادر القوة وعناصر الخلود فيها . لم يكن القصد منها أن نستوفى معالم تلك الحضارة سرداً واستعراضا ، فهيهات أن نستطيع ذلك فى مثل هـذا الحديث . ولـكنها خلاصة أردنا بها أن نبرز ما فى حضارتنا العربية من قوة ، وما تستند إليه من مقومات ، لم يزدها الزمن إلا رسوخا ولم تزدها الأيام إلا ثباتا ، حتى غدت بذلك كله تراثاً خالداً من حقنا أن نفاخر به ، ورسالة تالدة ما أحراها أن تعيش وأن تبقى على مر الأيام .

سليمان حزين
أستاذ الجغرافيا بجامعة فاروق الأول